الفصل الرابع

الصلة بين الإستعمار والتنصير والاستشراق

إن الذي يدرس الإستعمار والتنصير والاستشراق لا يحتاج إلى كبير عناء في فهم مهمة هذه الأسماء إذ يتضح له من أول وهلة أن هذه المنظومة تتطابق أفكارها وأصولها ومقاصدها وأهدافها ودرجت أن تتوزع الأدوار فيما بينها ولاسيما عندما يكون عملها في المنطقة الإسلامية والمواجهة مع الإسلام.

وهي ذات أفكار ماكرة حتى أن العلامة عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ألف فيها كتاباً جامعاً يوضح كيدها ومكرها ضد الإسلام والمسلمين تحت عنوان (أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها - التبشير - الاستشراق - الإستعمار) ويمكن للقارئ أن يرجع لهذا الكتاب الجامع الذي وضح بجلاء كيف عملت هذه المنظومة كيدها في الأمة الإسلامية بصفة عامة والأمة الواقعة في المنطقة العربية بصفة خاصة[1].

لدى البحث العميق والتحري الدقيق تقصياً للحقائق، نلاحظ أن كثيراً من الأفكار المشوهة عن الإسلام وتاريخ المسلمين والمضادة لهما، المنتشرة في صفوف الأجيال الحديثة من أبناء المسلمين، والمنتشرة في معظم البلاد غير الإسلامية ليست إلا أثراً مباشراً وغير مباشر من آثار دسائس المنصرين والمستشرقين

(١) انظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني - أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير - الاستشراق - الإستعمار - الطبعة الأولى (دمشق، دار القلم ١٩٨٠م) ص٥

والمستعمرين ضد الإسلام ومن ورائهم كيد يهودي يعمل لمصلحته ويستغل جهود كل مفسد، وقد وفد هؤلاء إلى البلاد الإسلامية وفي حقائبهم العلمية أو الدعائية أو الدبلوماسية تعليمات مكتوبة وغير مكتوبة تحملهم مهمات متعددة وأكب فريق منهم على دراسة المعارف الخاصة بالمسلمين دون أن يغدوا إلى بلاد الإسلام والمسلمين **ونستطيع أن نستبين من نتائج أعمالهم المهمات التالية:**

المهمة الأولى:

هدم الإسلام في عقائده وعباداته وأخلاقه، ولكن هذه المهمة التي يحملونها في محافظ أيديهم وحفائظ نفوسهم وقلوبهم وأفكارهم يضعون عليها أول الأمر أقنعة مبهرجة براقة، تخدع الناظرين وتستميل قلوبهم ونفوسهم وأفكارهم لتوقعهم في الشرك، حتى إذا ظفروا بصيدهم شدوا عليهم وثائق الأسر المعنوي الشامل للأسر الفكري والقلبي والنفسي.

واثر الأسر الفكري يكون بربط أفكار أبناء المسلمين وبناتهم بمجموعة من المعارف المزيفة التي يلبسونها أثواب الحقائق المسلمة ضمن حشو من المعارف المادية الحقة، والمسلمة منطقياً والمؤيدة بالشواهد، والواقع تحت الأسر الفكري يجد نفسه مشدوداً فكرياً بأسباب خفية إلى موقع الغزاة.

وأثر الأسر القلبي يكون لتوليد عواطف الميل أو الرضى أو الحب لما يأتي به هؤلاء الغزاة من كل أمر مضاد لرسالة الإسلام وتاريخ المسلمين.

وأثر الأسر النفسي يكون بربط الأهواء والشهوات والغرائز النفسية بأسباب الفتنة المادية التي ينشرها الغزاة بينهم.

المهمة الثانية:

تجزئة المسلمين أينما كانوا من الأرض حتى يمسوا أشتاتاً متباعدة متنافرة متقاطعة مبددة، لا تجمعهم جامعة، ولا تؤلف بين جماعتهم أواصر دينية أو تاريخية مصلحية.

المهمة الثالثة:

تشويه صورة الأمة الإسلامية الحالية والتاريخية الغابرة بكل وسيلة من وسائل الكذب والافتراء والتزوير للحقائق وذلك بقية حقن هذا الجيل من أحفاد المسلمين بالشعور والنقص والتخلف، كما يكون أطوع للسوق في أيدي الغزاة إلى ركب أعداء الإسلام الذين يتابعون كل أثر إسلامي بالهدم والتزوير ومحاولات الإبادة وبغية حقن الشعوب الأخرى بالكراهية للمسلمين والنفور منهم لاسيما الشعوب التي كانت تجد فيهم صورة رائعة من صور العدل، وصورة عظيمة من صور القوة الكبرى والمعرفة المقدسة المتنامية المتكاثرة التي لا تقنع بأي مرحلة بلغتها من مراحل البحث والمتابعة لأن الإسلام قد وضع لها زمرة من أسس وحوافز المتابعة الذاتية الدائمة.

المهمة الرابعة:

خداع الشعوب الإسلامية تربط كل صورة من صور التقدم الحضاري والمدني بخطة هدم وتجزئة المسلمين التي يزينوها لهم ويربط كل صورة من صور التخلف الحضاري والمدني بالاستمساك بالإسلام وبالمفاهيم والمعارف التي يحملها علماء المسلمين وخداع الشعوب الأخرى التي كان بينها وبين المسلمين مشاركات وطنية داخل البلاد الإسلامية في تعاطف متبادل وتعاون كريم، وذلك بإلغاء مسئولية تخلفها على المسلمين وبث الكراهية والبغضاء في قلوبها عليهم بغية إيجاد الطوابير التي تجند لحرب المسلمين داخل بلادهم وانطلقت كتائب هذا الجيش الثلاثي المؤلف من كتائب المبشرين والمستشرقين والمستعمرين بوسائلها المتنوعة غازية على نطاق واسع كل بلد من بلاد المسلمين، في غارة تاريخية طويلة الأمد محكمة الكيد، لم يعرف التاريخ لها نظيراً، فلم تدع بلداً من بلاد المسلمين إلا ودخلته ولم تترك ميداناً من ميادينهم إلا أجرت خيولها فيه، ولا قمة من قممهم إلا حاولت أن تعتلي صهوتها ولا حصناً من حصونهم إلا أنفذت إلى داخله رهطاً من المخربين المفسدين، إلا أن جوهر الإسلام الحق استطاع أن يحافظ على نقائه، في روائع نصوصه، وفي طوائف من المسلمين قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم مهما كثر الخبث وانتشر الفساد في الأرض، وهؤلاء بذور النماء التي تهيئ لها الموجات

التاريخية فرصة التكاثر السريع مهما اجتثت أعداء الإسلام من أفرادها في كل عصر[١].

لقد مضى الاستشراق والغزو الإستعماري في طريق واحد، المستعمر يغزو البلاد والمستشرقين يغزون الفكر والتراث الإسلامي، ونجد الإستعمار يحتاج الدعائم الفكرية والروحية التي تمهد له الطريق وتثبت له حكمه، ودلائل ذلك كثيرة نعطي منها يعطي الملامح لكيلا تكون هناك شبهة في أن الإستعمار الغربي والتبشير والاستشراق جيش غزاة الغرب النصراني للشرق الإسلامي لقد تمت علاقة قوية بين الإستعمار والتبشير (التنصير) والاستشراق[٢].

لقد ظلت الصلة بين الإستعمار والاستشراق والتبشير (التنصير) قائمة ولم تنقطع رغم زعم بعض المستشرقين والمتأثرين بكتاباتهم من العرب أن مرحلة الحقد كانت ناشئة من شعور بالحقد على المسلمين ناشئ عن الشعور بالنقص، فلما أمسك الغرب بزمام القوة بردت نار الحقد وأصبحت دراسات أكاديمية وهذا غير صحيح لعدة اعتبارات وبراهين:

١- استمرار بقاء كثير من المؤسسات التبشيرية الإستعمارية بين ظهرانينا كمدارس الإرساليات والجامعات الأمريكية بالقاهرة وبيروت واستانبول.

٢- إن المستشرقين في كل البلاد الإسلامية تقريباً يتبعون وزارة الخارجية ولا يزالون كذلك مثل (ميتشل) الذي أصدر في السبعينات كتابه (الأخوان المسلمون) مما يدل على أن مهمتهم سياسية وليست علمية ف (انتوني ايدن) رئيس وزراء إنجلترا السابق الذي شغل من قبل منصب وزير الخارجية وأسهم فيما بعد في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م لم يكن يتخذ قراراً سياسياً يتصل بالشرق الأوسط إلا بعد الرجوع إلى المستشرقين من أساتذة جامعة (أكسفورد) وكلية العلوم الشرقية من أمثال (مرجليوث) كما أن

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني - أجنحة المكر الثلاثة - مرجع سابق ص١٧ -١٩.

(٢) عبد المتعال الجبري، الاستشراق وجه الإستعمار الفكري، الطبعة الأولى (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٥م) ص٨٧.

المستشرقين اليهود لا يزالون يعملون لتحقيق أهداف الصهيونية العالمية فقد أشار (يوري ايفانوف) اليهودي الماركسي في كتاباته يقول بيجن، أمام ممثلي الجيش الإسرائيلي في ٢٨ أكتوبر ١٩٥٨م (أنتم أيها الإسرائيليون يجب ألا تكونوا رؤوفين عندما تقتلون عدوكم، عليكم أن لا تشفقوا عليه ما دمنا لم نقضي بعد على الحضارة العربية (الإسلامية) التي سنبنى على أنقاضها حضارتنا وليس ببعيد تلك المؤتمرات اليهودية الأمريكية التي عقدت في الإسكندرية وبعض العواصم الغربية واشترك فيها بعض الشيوعيين المصريين بهدف أو تحت مظلة الدراسات النفسية المطلوبة من أجل وجود حالة طبيعية بين العرب وإسرائيل في أواخر السبعينات ثم أوائل الثمانينات.

٣- إن الإستعمار والاستشراق قد يلتقيا أحياناً في طريق واحد إذا دعت الحاجة أو حتمت الظروف والضرورات السياسية ذلك، وأن المستشرقين ركزوا مؤخراً على الدول الأفريقية والآسيوية غير العربية، ووجدوا فيها مجالاً جديداً يصولون فيه ويجولون، بسبب ظروفها المحلية وارتباط بعضها بالدول الإستعمارية بروابط سياسية وذلك بعد أن بارت كتاباتهم في البلاد العربية بسبب يقظة أبنائها لدسائسهم وسطحية ما يكتبون وعدم موضوعيته.

٤- لا تزال هناك المجلات الاستشراقية والمؤلفات والبحوث ودوائر المعارف التي يحررها المستشرقون تقذف بالأكاذيب والمغالطات والشبهات على الإسلام وأهله، ويستعينون بتلاميذهم في بث هذه المقترحات بل ويحيون العصبيات العنصرية لتمزيق الشرق الإسلامي بين فرعونية مصر، وبربرية في شمال أفريقيا وكردية في كل من العراق وإيران... الخ.

٥- لا يزال بعض المستشرقين المعاصرين يعترفون بما نقول فمثلاً يقول (برنارد لويس) (لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومنتشرة وراء الحواشي المرصوصة في كتابات البعض الآخر ويقول المستشرق (نورمان دانيل) على الرغم من المحاولات التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين عن

الإسلام فإنهم لن يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تاماً كما يتوهمون[١].

يوضح للدارس أن الاستشراق والتنصير هما طلائع الإستعمار وهداته وحداته، لقد كان للمد الإستعماري في العالم الإسلامي دور كبير في تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق وخصوصاً بعد منتصف القرن التاسع عشر. وقد أفاد الإستعمار من التراث الاستشراقي من ناحية أخرى كان للسيطرة الغربية على الشرق دورها في تقرير موقف الاستشراق، وتواكبت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق وفي مضمونه مع مرحلة التوسع الأوروبي في الشرق، وقد شهد القرن التاسع عشر استيلاء المستعمرين الغربيين على مناطق شاسعة من العالم الإسلامي، استطاع الإستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين.

وهكذا نشأت رابطة رسمية وثيقة الصلة بين الاستشراق والإستعمار وانساق وراء هذا التيار عدد من المستشرقين ارتضوا لأنفسهم أن يكون علمهم وسيلة لإذلال المسلمين وأضعاف شأن الإسلام وقيمه وهذا عمل يشعر إزاءه المستشرقون المنصفون بالخجل والمرارة[٢].

وعن علاقة الاستشراق بالإستعمار ينبغي أن نشير إلى حقيقة هامة وهي أن الإستعمار الغربي بالنسبة للمسلمين ليس مجرد إستعمار اقتصادي أو سياسي أو عنصري وإنما هو بالدرجة الأولى والأخيرة هو الحقد الصليبي على الإسلام والمسلمين ويكفي أن نشير إلى أن المستعمرين للعالم الإسلامي لم ينسوا قط أنهم صليبيون جاءوا لغزو المسلمين وحكمهم حتى قال (ألنبي) القائد البريطاني قولته المشهورة عندما دخل القدس سنة ١٩١٨م (الآن انتهت الحروب الصليبية) ومن ثم فلا عجب أن يرتبط الثالوث المكون من الاستشراق والإستعمار والتنصير ارتباطاً عضوياً وثيقاً يظهر في التحالف بين هذه الثلاثة جميعاً على حرب الإسلام

(١) عبد المتعال الجبري، الاستشراق وجه الإستعمار الفكري، مرجع سابق ص٧٣ -٧٤.

(٢) محمود حمدي زقزوق/ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري - الطبعة الأولى - (الدوحة - رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الإسلامية ١٤٠٤هـ) ص ص٤٣-٤٤

والمسلمين وبدافع واحد هو مجرد وجود الإسلام ووجود المسلمين.

لقد كانت بريطانيا كدولة إستعمارية تعتبر دائماً أن من أهم مصالحها في العالم الإسلامي هي المصالح الدينية وبخاصة تلك المصالح المتمثلة في مؤسسات التنصير وإرسالياته ونشاطاته التي كانت تستظل دائماً بحمايتها وتشجيعها في جميع البلاد الإسلامية التي وقعت فريسة للإستعمار البريطاني خاصة في مصر والسودان والأقطار الإسلامية الناطقة باللغة الإنجليزية.

وكذلك موقف فرنسا في المغرب العربي وسوريا ولبنان والبلاد الإسلامية، الناطقة باللغة الفرنسية وهو نفس الموقف الذي تقفه الولايات المتحدة الأمريكية الآن في الشرق الأوسط بمؤسساتها التنصيرية من مدارس وكليات ومستشفيات ومطابع ودور نشر التي لا زالت تمارس نشاطاتها وتقوم بدورها كما رسمته سياسة الغزو الفكري الصليبي المدعمة بحكومتها[١].

والمعروف أن التنصير حركة دينية سياسية إستعمارية بدأت هذه الحركة أثر فشل الحروب الصليبية بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامة وبين المسلمين بخاصة بهدف أحكام السيطرة على هذه الشعوب[٢].

والاستشراق تيار فكري ودراسات للشرق الإسلامي تشمل الحضارات والديانات والآداب واللغات والثقافات وهذه الدراسات أسهمت في كيف يتصور الغربيون الإسلام واستفاد كل من الإستعمار والتنصير كما هو معروف من دراسات الاستشراق وثمة تلازم وتعاون واضح بين هذه المنظومة المكونة من التنصير والإستعمار والاستشراق[٣].

والاستشراق نفسه وليد التنصير، ولأن عمل المنصرين والمستشرقين قد

---

(١) أحمد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، الطبعة الثانية (لندن، المنتدى الإسلامي، ١٤١١هـ) ص٤٨-٤٩.

(٢) الندوة العالمية للشباب الإسلامي (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الطبعة الثانية، الرياض، مطبعة سفير، ١٩٨٩م) ص٥٩.

(٣) نفس المرجع ص٣٣.

يكونا عملاً واحداً في مواضيع كثيرة أهمها وحدة المنهج الدراسي للغات والأمم الشرقية والنظرة إلى الإسلام وإثارة الشكوك والشبهات حوله، وعند الحديث عن الاستشراق والتنصير سنجد منصرين تركوا حقول التنصير ليتخصصوا في الدراسات الاستشراقية كما نجد المستشرقين يلجأون إلى الإرساليات التنصيرية ليستفيدوا من دراساتها[١].

كلما توسع الإستعمار وثبتت أقدامه كلما زاد اعتماده على الاستشراق كمؤسسة تابعة له، تسانده في إدارة الشرق الإسلامي وتسهل له إخضاعه وقد سبق الاحتلال البريطاني والفرنسي للبلاد الإسلامية بدراسات واسعة ومخططة[٢].

ومن المعروف أن هناك طائفتين، طائفة تسمى المنصرين وطائفة تسمى المستشرقين والنظرة السطحية قد توحي بأن هناك فروقاً جوهرية بين الطائفتين وأن هذه الظروف تضعف افتراض وجود علاقة بينهما والواقع غير ذلك.

والنشاطات الاستشراقية والتنصيرية والإستعمارية متشابهة ويكمل بعضها البعض والفروق تبدو للنظرة السطحية بين الطائفتين ليست إلا فروقاً عرضية ترجع في الحقيقة إلى توزيع العمل بينهما، فطائفة المنصرين تركز على المدرسة والعلاج الطبي وطائفة المستشرقين تركز على الجامعة والبحث العلمي وهي أعمال يستفيد منها بالتالي الإستعمار[٣].

ولا يخفي أن التنصير والاستشراق دعامتان من دعائم الإستعمار وعملاء التنصير والاستشراق عملاء للإستعمار وخدام لسياسته وأن ظهروا بوجوه مقاومة الإستعمار وتحرير البلاد منه.

وقد تقاسم كل من التبشير (التنصير) والاستشراق والإستعمار جوانب الأعمال المقررة في الخطة العامة لغزو الإسلام والمسلمين وديار الإسلام[٤].

---

(١) عبد الجليل شلبي/ الإرساليات التبشيرية، بدون طبعة الإسكندرية، ص١١.
(٢) أحمد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، مرجع سابق ص٤٢.
(٣) المرجع نفسه ص٥٠.
(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني - أجنحة المكر الثلاثة - مرجع سابق ص١١٢.

ومن جانب آخر نجد أن التبشير (التنصير) قد استعان بالقوى العسكرية ليقوم بمهامه وهو آمن على نفسه واستعان كذلك بأفكار ومؤلفات المستشرقين.

يلتقي الغزاة المستعمرين والمبشرين (المنصرين) ومعظم المستشرقين على محاربة الإسلام ومقاومة دعوته وهدم أبنيته.

يتضح من الدراسة أن الإستعمار والتنصير والاستشراق لهم مواقف فكرية متطابقة ومواقف عملية تطبيقية وأن هذه المنظومة دفعت بها قوى الصليبية والنصرانية للعالم الشرقي وحددت أفكارها وأهدافها وأن اختلفت وسائلها فمثلاً الاستشراق يعمل في جانب الأفكار وغزو العقول والدراسات الحضارية والفكرية والتنصير يجعل همه المدرسة والتطبيب وكل من التنصير والاستشراق يعملان في حماية الإستعمار المدجج بالسلاح وينعمان بالأمن في وجوده، وعليه الدراسات العلمية والموضوعية تخرج بأن هناك تلازم بين كل من التنصير والاستشراق والإستعمار وأن هذه الأجنحة يكمل عملها عمل بعض وقد كانت أجنحة ثلاثة ماكرة عملت ولا تزال تقوم بأدوارها في الشرق الإسلامي بصفة خاصة وفي الشرق بصفة عامة.